هل كرم المصريون المرأة أكثر من الاسلام

الباحث عزالدين بن راشو

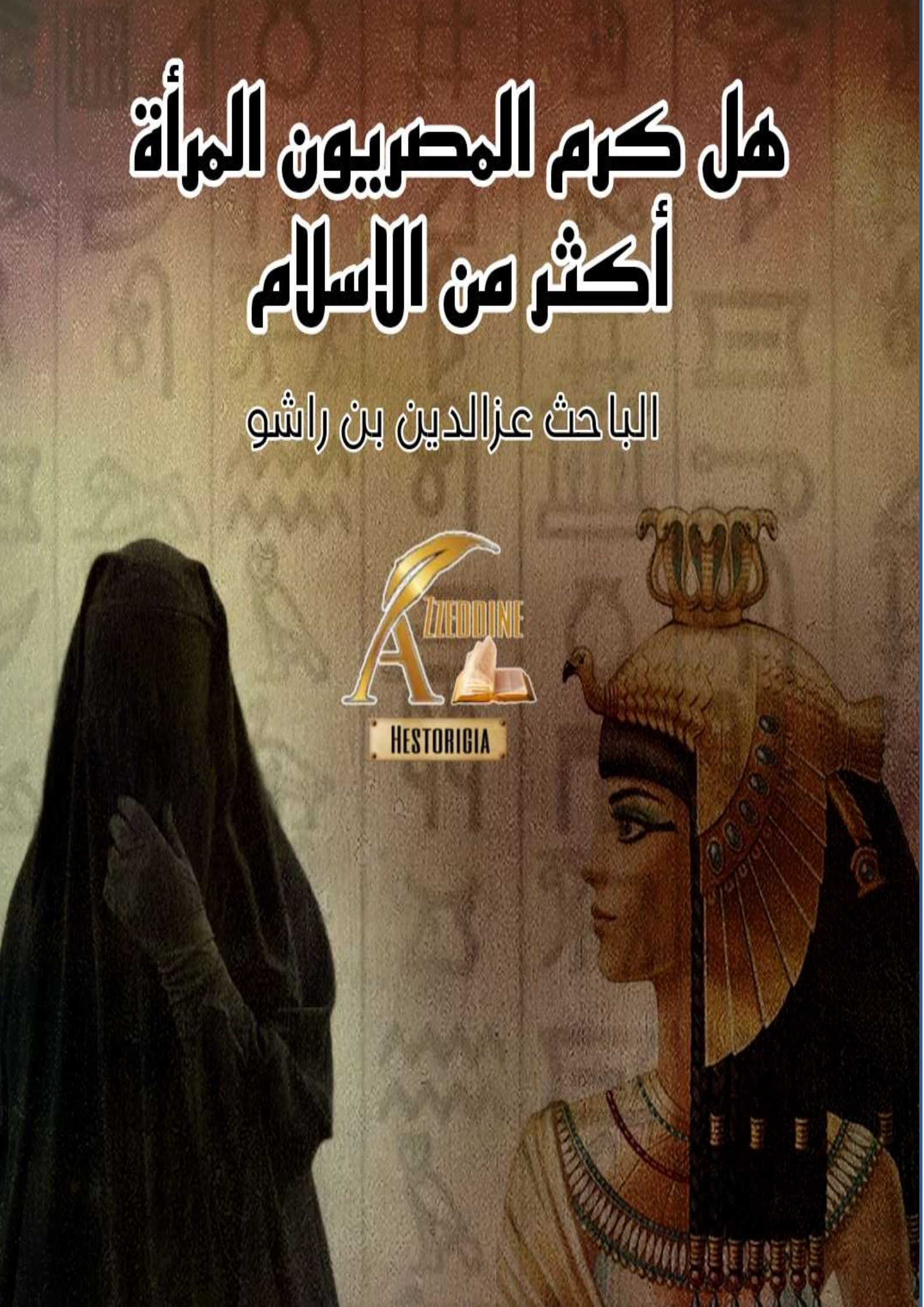

ليهلك من هلك على بينة

ويحيى من حيّ على بينة

سورة الأنفال

هل كرم المصريون القدامى المرأة أكثر من الإسلام؟

هذا المقال هو إجابة على سؤال الأخ محمد المستريحي جزاه الله خيرا ، وكنت وعدته بالإجابة لكن تأخرت قليلا حتى تكون الإجابة كاملة وشافية لدحض أي فكر يقوم على محاربة الإسلام تحت شعارات القومية والوطنية ، ونسأل الله أن يوفقنا فيه لما فيه خير لديننا وأمتنا :

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

قالَ عُمَرُ: واللَّهِ إنْ كُنَّا في الجَاهِلِيَّةِ ما نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أمْرًا، حتَّى أنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ ما أنْزَلَ، وقَسَمَ لهنَّ ما قَسَمَ [1]

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرا في غير موضع وبينت نصوص الوحي مالهن من حقوق وكرامة و قدر وفضل ، وماعليهن من واجبات يقمن بها لخدمة دينهن ودنياهن ، وإنه لا يوجد مسلمة درست كتاب ربها وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ترى في الإسلام ظلما لها ، ولم نرى هذا إلا ممن يريدون أن يفسدوا المرأة بدعم ليبيرالي علماني صهيوني بعد أن أفسدوا مجتمعاتهم بـأن نكسوا فطرة نساءهم وأوموهن أنهن متحررات و قادرات على مزاحمة الرجال في ميادينهم ، وهذا مالم يحدث في أي مجتمع عبر التاريخ إلا في عصرنا السقيم هذا .

وفي ظل هذا ظهرت الكثير من المذاهب الفكرية والحركات الشاذة التي تريد أن تفسد على نساء المسلمين دينهن ودنياهن ، ومن ظمن هذا ظهرت القوميات بمختلف أنواعها كالقومية المصرية والأمازيغية والكردية ، وكل هاته القومية تستند أحيانا على تاريخ منقطع لا مجال للإتصال به ، قد عفا الزمن عنه ، فلا يستطيع أي مصري أن يثبت أصله المصري القديم ، ولا يستطيع أمازيغي أن يثبت وجوده التاريخي أصلا ناهيك عن إثبات أصله العرقي ، فنحن في عصر هو خلاصة عدة تطورات تاريخية و هجرات عرقية واستيطانات سياسية ، فلا يوجد قرية من قرى العالم العربي لم يطأها أكثر من عرق واحد على مر التاريخ ، فحتى النتائج الجينية هي مجرد نتائج تقريبية وظنية واحتمالية .

في ظل كل هذا ظهر لنا في الفترة الأخيرة دعاة القومية المصرية الكيميتية ، وبدأت الدعاوي لتمجيد الوثنية القديمة ، و لما كان الإسلام ضد أي تميز عرقي أو لوني أو وطني او حتى تمايز بالحسب والنسب ، كان لابد أن يسعوا إلى تشكيك الناس في صحة هذا الدين العظيم من خلال شبهات وهمية كلها مردودة بإذن الله تعالى ، ومن ظمن هذه الإدعاءات أن المصريين القدامى كرموا المرأة أكثر من الإسلام، وعجبت لقوم يدعون تمسكهم بتاريخ لم يقرأوه ولم يبحثوا فيه، وهذا إن دل فإنه يدل على جهل هؤلاء وسذاجة تفكيرهم ، وربما سطحيته أيضا .

[1] صحيح البخاري / 4013

وفي ظل هذا نحن لا ننكر أن القانون المصري القديم والمجتمع المصري ، بل حتى البابلي واليوناني قد أعطى حقوقا لابد منها للمرأة ، وكرمها في كثير من الأمور ، إلا أن يصل الإدعاء بأن المرأة في مصر القديمة قد كرمت أكثر من الإسلام ، فهذا عين الكذب والسطحية في قراءة التاريخ .

مظاهر تكريم الأنثى في الحضارة المصرية لا نستطيع تعميمها : إن مجتمع مصر القديمة هو مجتمع طبقي ، فكانت طبقة الفرعون وحاشيته ووزراءه ، وطبقة الكهنة والكتاب ، وطبقة الجنود ، وطبقة الحرفيين والعمال ، وطبقة العبيد ، وباستثناء طبقة الفرعون ووزراءه مع طبقة الكهنة كانت باقي الطبقات تأتي في مراتب أدنى من الأولى ، ولا تشملها الحقوق التي تشمل الطبقات الأولى ، وإذا تمعنا في الأدلة التاريخية والشواهد الأركيولوجية عن تكريم المرأة سنجد أغلب تلك المظاهر وجدت في الطبقات الأولى الراقية ، فلا يمكننا تعميم كل مظهر على كل نساء مصر القديمة .

فمثلا نجد الطلاق منتشرا في الطبقات الفقيرة حتى لأتفه الأسباب لضعف الرابطة الزوجية ، في حين كانت طبقة الفرعون وطبقة الكهنة يميزها الإعتقاد بالدم المقدس ، فكان تكريم المرأة وقوة الرابطة الزوجية بسبب رابطة الدم المقدس ، حتى إن بعض الفراعنة قد تزوجوا من أخواتهم الشقيقات خاصة في العصر البطلمي .

بالمقابل نجد أن هناك فئة من النساء الغريبات ، وهن ممن تركهن أزواجهن أو ترملن فكن دائما موضع ريبة من طرف المجتمع ، وكن يطفن أنحاء البلاد .[2] وفي إحدى الأساطير عن إيزيس أنها دخلت بيت دعارة وأن احدى العاهرات لسع عقرب ابنها فخرجت تحمله وتصيح ولم يلقي أحد بالا لصراخها [3] فإن دلنا هذا على شيء فإنه يدل على أن هناك طبقيات في المجتمع المصري ، فمثل هاته النساء اللواتي ألجأتهن الحاجة إلى البغاء لم يكن لهن أي اهتمام من طرف المجتمع المصري سوى اجسادهن الرخيصة.

نماذج تاريخية للمحاكمة :

البغاء: إن الله عز وجل قد حرم على النساء والرجال سواء أي علاقة جنسية خارج الزواج الشرعي ، وهذا لصون المجتمع من الوقوع في الفواحش وفساد أخلاقهم وانحلالها ، ناهيك ماينتج عنه من أمراض خبيثة و اختلاط أنساب وضياع حقوق وربما تفكيك أسركاملة ، يقول جل وعلا في كتابه :

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا[4]

وينهى الله عز وجل عن إكراه الفتيات عن البغاء فيقول ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا[5]

كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين عن ذلك .
وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف - في شأن

---

[2] موسوعة الحضارة المصرية القديمة / د. سمير أديب / صـ 723
[3] الحياة الجنسية في مصر القديمة / ليز مانيش / صـ 20
[4] سورة الإسراء 32
[5] سورة النور الآية 33

عبد الله بن أبي بن سلول المنافق ،إنه كان له إماء ، فكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ، ورئاسة منه فيما يزعم قبحه الله ولعنه .[6]

لكن لنرى في مصر القديمة ماكان يحدث في هذا الموضوع ، هل كانت المرأة تكرم ، أم أنها كانت تكره على البغاء ومعاشرة الرجال الأجانب لها ؟

الجغرافي سترابو في القرن الأول قبل الميلاد يتكلم عن ما كان يحدث في معابد أمون ، فيقول :

يكرس المصريين لزيوس"أمون" واحدة من أجمل الفتيات من بنات أنبل العائلات لكي تكون عاهرة تضاجع من يشاء من الرجال حتى يتطهر بدنها[بحلول الحيض الشهري] ، وبعد تطهرها توهب بالزواج لرجل ، ولكن قبل الزواج وبعد تطهرها يقام حداد تكريما لها ." [7]

الملاحظ أن سترابو هنا يتكلم عن الإله زيوس وهو الإله الاكبر عند اليونان ، ويقابله الإله أمون في مصر ، وبالرغم من كون سترابو يتكلم عن فترة متأخرة من العهد الهيلينيستي ، إذ كانت حينها مصر تحت حكم الرومان ، إلا أننا حقيقة لا نجد مثل هذه الطقوس للإله زيوس في اليونان أو جوبيتر في روما، وإنما هذه الطقوس هي طقوس تعود جذورها للشرق الأدنى كما نلحظها في معابد عشتار في أوروك ، أو للإلهة عناة فوق الجبل في أوغاريت ، ولا يخفى على أي دارس للتاريخ القديم تأثر المصرين بالحضارة البابلية والأوغاريتية عكس مايروج له دعاة الفكر القومي المصري .

كذلك من الملاحظ أن هذه الرواية تقول أن الفتاة تكون من أنبل العائلات ، فكيف هو الحال إذا بالطبقات الدنيا ؟

ليست هذه الرواية الوحيدة التي بين أيدينا ، فيذكر هيرودوت في تاريخه المجلد الثاني :

أمر الملك رامبينيتوس ابنته أن تقيم في غرفة معينة ، وتستقبل كل من يأتي إليها من الرجال ، وقبل أن يضاجعها الرجل تسأله أن يحكي عن أمهر حيلة أو خدعة أو جريمة ارتكبها في حياته [8]

بل يذكر هيرودوت أيضا في نفس المجلد أن الملك خوفو باني الهرم الأكبر الذي يتغنى بعظمته دعاة القومية المصرية كان على درجة من الفساد أدت إلى إفلاس خزائنه ، ما أدى به إلى أن يأمر بنته بأن تحيا في غرفة وتستقبل الرجال لمضاجعتها مقابل أموال ، وبهذه الأموال تم بناء الهرم الأكبر ، فعن أي تكريم للنساء تتحدثون وهذا كان مع بنات الملوك والنبلاء ؟ وعن أي عظمة في بناء عجائب الدنيا بالفسق والدياثة ؟

مساواة بين الجنسين أم تفريق ؟

إن الإسلام جاء مساويا بين الجنسين من حيث الأفراد ، إذ جعل معيار التفاضل هو التقوى ، وفضل الذكر على الأنثى من حيث الجنس إذ جعل فيه الولاية والخلافة والنبوة والحكم ، وهذا للإعتبارات البيولوجية والقدرات العقلية للرجل التي يتفوق فيها عن الأنثى ، ولم يجعل أبدا التفاضل بين الأفراد

---

[6] تفسير بن كثير

[7] the geography of strabo / H .L . Jones / part 1 - 17/ p46

[8] تاريخ هيرودوت ، المجلد الثاني ، 121

بحسب الجنس ، لأن الأنثى التقية العفيفة الصالحة التي تخاف ربها خير من الرجل الفاجر ، فمعيار التفاضل هو التقوى .

إذا ماذهبنا إلى الحضارة المصرية سنجد أن الإعتبار والأفضلية من حيث الجنس لا من حيث العمل ولا حتى باعتبار العمر ، فكانت مراكز الأبناء في الأسرة السادسة متفاوتة ، إذ كان الذكر يعد الأكبر حتى لو كانت له أخت أنثى أكبر منه ، وكان الإبن الأكبر يعد هو رئيس الأسرة كما أعلن ذلك الأمير "مرى – عا" [9]

إن اعتبار القوامة للإبن الأكبر هنا لا تعليق عليه فهو ليس بالأمر السيء ، وإنما ما نؤاخذهم عليه هو اعتبار الابن حتى ان كان أصغر عمرا أنه أكبر ، ولا شك ان هذا أيضا له اعتبارات كثيرة من ناحية وقوع الأحكام خاصة في باب الميراث .

الصداق : لقد كرم الله عز وجل المرأة في الإسلام بفرض لها صداق على الرجل تقديمه ، ولا يحق للرجل أن ينقص من قيمته شيئا ، في التاريخ المصري نجد بعض مظاهر الصداق ، إلا أن هذا لم يكن مفروضا على الزوج ، نجد بعض الحالات قدم فيها الزوج صداقا مؤخرا لزوجته بعد زواجه ، ولكن لا يمكن أبدا ان نعتبره مهرا بل هو هبة يعطيها الزوج لزوجته ، وإن مما نلاحظه أيضا أن المرأة كانت تأتي بمال معها من بيت أهلها حين زواجها كهدية لها ، وهذا لازال موجودا ليومنا هذا ، [10] إلا أن الصداق يبقى من مظاهر تكريم المرأة إذ يعتبر فرضا على الرجل تقديمه لها .

تعدد الزوجات : إن أكثر شيء يصدع به رؤوسنا هؤلاء دعاة القومية هو أن المرأة كانت مكرمة لايحق للزوج أن يتزوج غيرها ، لكن مانلاحظه أن الكثير من الملوك المصريين كانوا يتزوجون أكثر من امرأة أحيانا لاعتبارات سياسية ، وأحيانا لا ، فمثلا الملك أمنحوتب الثالث وامنحوتب الرابع وتحتمس الرابع كان لهم أكثرمن زوجة شرعية ، كذلك الملك رمسيس الثاني كان له زوجتان مصريتان وزوجة حيثية [11]

ومما نلاحظه أن القانون المصري خاصة في الدولة الوسطى والحديثة لم يكن يمنع على الأقل تعدد الزوجات ، لكن أحيانا نلاحظ ظاهرة أخرى وكانت أكثر شيوعا خاصة في الأوساط الفقيرة ، وهي ظاهرة المحضيات ، فكثيرماكان للزوج إلى جانب زوجته الشرعية زوجة محضية ، وقد لاقت الزوجة المحضية نفس الحقوق التي كانت للزوجة الشرعية ، كذلك هناك أدلة أثرية تثبت أن الخليلة كانت بنفس مكانة الزوجة الشرعية .[12]

وفي احدى البرديات نقرأ أن إحدى المحضيات تتحسر على إلقاءها خارج البيت واستبدالها بأخرى :

مثل امرأة حولاء عاشت عشرين عاما في منزل رجل ، ثم يجلب أخرى ويقول لها : لقد كرهتك لأنك حولاء ، فترد عليه : لأنك لم تجد غيري لعشرين عاما عشتها في بيتك ، إنها أنا الآن من تزدريك [13]

ففي هذا الجانب ان الإسلام قد كرم المرأة بأنه لم يبح أية علاقة خارج الزواج ، إذا لم يتفق الزوجان وصار الطلاق ضروريا كان للمرأة عدتها التي يمكن فيها أن يصلحا العلاقة ويمنعا الطلاق ، ثم إذا كان

---

[9] موسوعة الحضارة المصرية القديمة / د. سمير أديب / صـ 721
[10] المصدر السابق /718
[11] المصدر السابق / 720
[12] الحياة الجنسية / ليز مانيش /22
[13] المصدر السابق / 26

الطلاق فلها حقوق كفلها لها دين الإسلام ، لكن مانراه من أمر المحضيات في مصر القديمة لم يكن لها أي حق إن تركها الرجل ، كما كان يحق له تركها متى شاء .

الخيانات الزوجية : لقد عرفت نساء مصر قديما في كل الطبقات بالخيانات الزوجية ، ولو نكتب في مثل هذه القصص كتابا لا يكفينا ، حتى إن هيرودوت يخبرنا أنه نادرا مانجد امرأة لم تخن زوجها ، فيقول :

وفي السنة الحادية عشر جاءه الوحي من مدينة بوطو معلنا أن مدة عقوبته قد انتهت ، وأنه سوف يبصر بعد أن يغسل عينيه ببول امرأة لم يكن لها قط اتصال برجل غير زوجها ، جرب فيروس امرأته لكنه لم يبصر ، وبعد ذلك جرب جميع النساء الواحدة بعد الاخرى ، وبعد أن أبصر جمع جميع النساء اللائي جربهن ، ماعدا تلك التي أبصر بعد الاغتسال ببولها ، في مدينة واحدة وهي التي تسمى الآن الطمى الأحمر ، وبعد أن ساقهن إلى المدينة أحرقهن جميعا "[14]

وكلنا نعرف قصة يوسف عليه السلام مع زوجة عزيز مصر التي ذكرت في الكتاب المقدس والقرآن الكريم ، ونجد قصة أخرى شبيهة بها وهي قصة باتا و زوجة شقيقه وقد وجدت في بردية محفوظة في المتحف البريطاني "بردية أوربيني ،المتحف البريطاني ،10،183" وتعود لعهد سيتي الثاني 1210 ق.م، وهي قصة تحكي عن محاولة زوجة شقيق باتا الأكبر المدعو أنوبيس أن تغري شقيقه باتا ليجامعها ولكنه رفض . قد تكون القصة مأخوذة من قصة زوجة فوطيفار عزيز مصر ويوسف عليه السلام ، وهذا احتمال قوي لأن يوسف عليه السلام أقدم عهدا من هذه القصة ، ولكن تداولها وشيوعها يبين أنها تناولت ظاهرة كانت سائدة في مصر القديمة .

ونجد ضمن نصائح الحكيم آنى لابنه خنسو – حتب هذه الوصية :

وإذا كتبت لك امرأة عن غياب زوجها واستدعتك للتردد عليها بهذا السبب فاعلم أنها تنصب لك شباك الهلاك ، لأن النفس أمارة بالسوء ،والموبقات طريق سحيق إلى الوبال ،وغائلة المرأة لا تؤمن في حدتها الشهوانية [15]

وإننا نجد في عقوبة الزنا اختلافا فيها ، ففي الإسلام الرجم للمحصن والمحصنة والجلد للغير المحصن والغير محصنة ، فيتساويان في العقوبة ، لكن في مصر القديمة نجد العقوبة الشديدة تقع على المرأة ، فعندما تكون المرأة متزوجة وتقع في الزنا تعاقب بالحرق ، في حين يعاقب الرجل بالقتل [16]، وإننا لنرى أن عقوبة الحرق أشد من القتل ، لأن فيها عذاب وألم و تأخر في الوفاة بعكس القتل الذي تخرج الروح فيه مباشرة دون تعذيب .

وراثة العرش : لا يوجد ضمن القانون المصري مايمنع المرأة أن تصعد للعرش إن كان من حقها ، إلا أننا لا نشهد ولا حالة واحدة صعدت فيها المرأة للعرش الملكي باستثناء حالات إستثنائية وكل تلك الحالات قد لاقت استهجانا من طرف المجتمع المصري حينها وحاشية البلاط وحتى الباحثين والعلماء في هذا العصر ، ومن أمثلة هذا الملكة حتشبسوت ، فقد حكمت نيابة عن الملك تحتمس الثالث لأنه كان صغيرا إلا أنها رفضت تسليم العرش له ، ومما نلحظه في حياة حتشبسوت أنها كانت تستعمل الضمير

---

[14] هيرودوت في مصر / وهيب كامل / صـ 92
[15] موسوعة الحضارة المصرية / صـ723
[16] المصدر السابق

المذكر في كل النصوص التي تتعلق بها ، وكانت ترتدي زي الملوك .[17] وفي هذه الحالة نستنتج أن سعي حتشبسوت لإضفاء الشرعية لنفسها باستعمالها الضمير المذكر كان له بعد في المجتمع الدولي والمجتمع المصري ، فلو كانت النساء يحق لهن الحكم مالجأت إلى هذا ، وما لبست لباس الرجال ، حتى إنها كانت تضع اللحية والشعر المستعار الذي هو رمز رجالي بحت، فترجل حتشبسوت لم يكن من فراغ، وإنما لتثبت جدارتها بالحكم لأن العقل والفطرة قبل المجتمع يرفض أن يتقبل امرأة تحكم مثل الرجال .

ملاحظات تأصيلية :

إن تناولنا لبعض هذه المظاهر لا يعني أبدا أننا ننفي تكريم المجتمع المصري للمرأة قديما ، بل حتى المجتمع البابلي والأوغاريتي والعربي والقرطاجي واليوناني كان ينظر للمرأة بعين التكريم ، وحتى في روما التي تعتبر أكثر الإمبراطوريات فيها الإنحلال الأخلاقي والجنسي فتكريم المرأة فيها كان موجودا ، لكن ماقمنا به هنا هو مجرد تبيان أن المرأة المصرية لم يرتقي تكريمها أبدا إلى تلك المرتبة التي جعلها الإسلام للمرأة ، بل لامجال للمقارنة أصلا .

هذا وعلينا أن نبين أن تكريم المرأة في دولة ما أو حضارة ما أو فكر ما أو معتقد ما ، لا يعني أبدا أن هذا التكريم كان أكثر من دين الإسلام ، وحتى إن وجد تكريما كبيرا كما شهدته الحضارة المصرية في بعض عصورها [وليس كلها] لا يعني هذا أنه دليل على أن الإسلام حط من قدر المرأة المصرية ، بل علينا إذا أردنا المقارنة الحقيقية أن ننظر في تلك الفترة التي جاء فيها الإسلام ودخل فيها لمصر ، فإنهم في هذه المرحلة لا يجرأ أحد على عقد المقارنة ، والإسلام لم يأتي أبدا بادعاء أن المرأة أينما كانت أنها كانت مهانة وغير مكرمة ، اللهم هذه النظرة لم نلحظها عبر التاريخ إلا في معتقدين وحيدين وهما اليهودية والمسيحية التي حطت من قدر المرأة ومكانتها واعتبرتها أدنى منزلة من حيث الجنس بسبب خطيئة حواء ، وهذا عين السفه والظلم والكفر والجهل ، لم تشهده ولا حضارة من الحضارات القديمة ، والإسلام جاء مكملا لمكارم الأخلاق التي كانت ، لا مؤسسا جديدا لها ، ومنه إن أي محاولة للطعن في الإسلام من هذا الباب هي مجرد محاولات وهمية ممن لم يطلبوا من العلم إلا وهم الروايات الخيالية و قنوات اليوتيوب التي لا تعتبر مصدرا علميا بأي شكل من الأشكال .

اللهم إني عبدك ، وأنت أعلم من كل خلائقك ، عالم الغيب والشهادة ، فإن وفقت لما فيه الخير لنصرة دينك فهذا من توفيقك وفضلك علي ، وإن أخطأت أو اجتنبت الصواب فهذا بجهل مني وضعف في علمي وقلة في بصيرة ، فلا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث عزالدين بن راشو

نبتغي رفع اللواء

---

[17] المرأة في التاريخ بين التأليه والتوبيخ / نزار مصطفى كحلة / 164